موسوعية الخطاب في "كليّات رسائل النور"

د. هشام فرّوم
جامعة قسنطينة1

الملخّص:

إنّ المتعمق في دراسة فكر بديع الزمان سعيد النُّورْسِي يصل إلى قناعة مفادها أنّ هذا الفكر موسوعي شامل لكل مقومات الأمّة وحضاراتها لتعدد خطاباته وتظافرها.

فكر استوعب كافة الاتجاهات والتيارات التي ولدت من رحم الأمة الثقافي، وتربّت في أحضان فضائها الفكري المميز لها.

خطاب النورسي في رسائله سياحة في ميادين العلوم على اختلاقها، وتعمّق في مناحي المعارف التي انتجتها الأمة . فلا يكاد يستقر على منحى فكري بعينه، لأنه يحمل بين جنبيه روحًا بلغ من اضطرابها: أنها لا تطمئن إلى التخصص في مادة يرتاح إليها، فهو طالب علم لا يشبع، وناقد لا يرحم، وسائح لا يستقر في مقام. ولأنه قد أحاط علما بمجالات فكر الأمّة كلّها، احتار المؤرخون له في تصنيفه عادة: "أهو فيلسوف أم متكلم أم متصوف أم فقيه". والصحيح أنه في نشاطه الفكري وخطابه النوري كان جميع ذلك، ما أهّله ليكون صاحب مشروع نهضوي إحيائي، فتح من خلاله عهدا جديدا لمن خلفه، ودشّن منهاجا له خاصيته، ونمطا في الحياة له معالمه.

Résumé:

L'étude. en profondeur de la pensée de Said Nursi jusqu'à la conviction que cette pensée couvre tous les objectifs des éléments de la nation et la civilisation de la multiplicité de ses discours. Absorber la pensée de toutes les tendances et les courants qui sont nés du ventre de la nation culturelle, et ont grandi dans les bras de sa intellectuel de l'espace qui lui est présenté .

Le discours de Nursi dans ses lettres « tourisme dans les domaines de la science fictive » et d'approfondir dans les domaines de la connaissance produits par la nation. Régler à peine une tendance intellectuelle particulière, car elle porte avec side-arms esprit atteint la défaite: ils ne reposent pas assuré de se spécialiser dans le sujet les détend, il est un chercheur de la connaissance est critique insatiable et impitoyable, et les touristes ne sont pas réglés dans le dénominateur. Parce qu'il avait pris note des domaines de la pensée de toute la nation, il a intrigué les historiens dans leur classe habituellement: «Est-ce un haut-parleur ou un philosophe ou mystique ou juriste." Il est vrai que dans son intellectuel et discours-Nusri était tout ce que sa famille voulait être le propriétaire du projet bio-renaissance, l'ouverture d'une nouvelle ère dans laquelle ceux qui lui succèdent , et a lancé en lui un curriculum de sa propriété, et un modèle dans ses traits de la vie.

من بين دفتيّ القرآن الكريم ومن سوره وآياته، ولدت الأمة الإسلامية وكلّ مقوّماتها؛ من العقيدة إلى الشريعة إلى منظومة القيم والأخلاق.

ولأنّ القرآن الكريم منهاج شامل وكامل للدنيا والآخرة، للدين والدولة، للفرد والطبقة والأمة، للذّات والآخرة: ﴿قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين﴾ [الأنعام:آ162، 163].

كان هذا القرآن الكريم، المنهاج الّذي يكوّن العقل الموسوعي[1] الّذي لا يسجن طاقاته في التخصص والضيّق والجزئي والمحدود... يكوّن العقل الّذي ينظر كيف بدأ الخلق، وكيف كانت المسيرة الإنسانية للأمم والشعوب والحضارات والنبوات والرسالات عبر التاريخ، ليعتبر بالسنن الإلهية التي حكمت الرسالة البشرية عبر هذه القرون.

وبسبب من هذا المنهاج الموسوعي الّذي يثمره الفقه والتدبّر لهذا القرآن الكريم، تميّزت الحياة العلمية والإبداع الفكري في الحضارة الإسلامية "بظاهرة العلماء الموسوعيين" الذين جمعوا -في إبداعاتهم- بين "عمق التخصص" وبين "شمولية الموسوعية"... فلم تقع عقولهم فريسة "لسجن التخصص" كما أنها لم تصب بالسطحيّة التي تفهم خطأً من "الموسوعية". [2]

نسخة غير قابلة للطباعة

وإذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة على الإبداعات الموسوعية التي أثمرتها عقول علماء هذه الأمة، الذين مثّل الواحد منهم موسوعة شاملة لمختلف العلوم والفنون والآداب، والّذين برئت عقولهم وإبداعاتهم من الفصام النّكد بين "عمق التخصص" وبين "الموسوعية"... فتميّزت موسوعيتهم بالشّمول لميادين الإبداع في علوم المادة وعلوم الرّوح، في علوم الدّين وعلوم الدنيا، في عالم الشهادة وفي عالم الغيب، في المنقول والمعقول، في الفلسفة العقلية ومنظومة القيم والأخلاق.

إذا أردنا أن نضرب مثالا على ذلك في تراثنا الفكري والعلمي فلن نجد أكثر من بديع الزّمان النُّورْسِي -رحمه الله- كظاهرة فكريّة موسوعيّة لم يظهر لها مثيل منذ عصور الحضارة الإسلامية في قمّة مجدها، فكان بحقّ الموسوعيّ الّذي وصل في مجال المعارف الإنسانية إلى حدود واسعة من القراءات والدراسات والأبحاث التي جعلت منه صاحب رؤية كونية في عالم الفكر العالمي.

وما تركه الإمام النُّورْسِي -رحمه الله- من رسائل نورانية في المجالات التي كتب عنها، تعدّ من الموسوعات المهمة -إن لم تكن أهمها في هذا العصر- التي ساعدت على تطوّر عالم الكتابة المعرفية- الموضوعية، وتقدّم قراءة والاعتماد على البراهين في صياغة البحث وطرح الأفكار، والإحاطة الشاملة بجوانب الموضوع حتّى تصبح المستند إليها في حجة النورسي الّذي جعل من جوهر الفكر الدّليل الواضح في عمليّة الإبداع، وتوسّع المعارف أعطى أبعادًا مختلفة في صياغة المذهب الفكري عند الإمام الّذي جعل من المعلومات الطريق المرشد إلى معالم الاهتداء.

بلغت رسائل الإمام النورسي -رحمه الله- حوالي 130 رسالة في مختلف الأغراض والموضوعات، تنوعت بين الدّين والسياسة والأخلاق والعدالة والاقتصاد والتربية والتعليم والفلسفة والتصوف ونقد المذاهب والعقائد وغيرها من القضايا، وقد وفّق غاية التوفيق فيها. والملفت للنّظر أنّه خاض عباب المسائل المستعصية المعقدة التي وقع كثير من العلماء في تيه منها وتنكبوا الصّراط القويم في حلّها، فوضّحها بكلّ يسر وبشكل قاطع، ووصل إلى ساحل السلامة وأوصل قرّاء رسائله إليها بسلوكه طريق أهل السنة والجماعة.

وعليه فالخطاب عند الإمام النورسيّ -رحمه الله- لا يتّصف بطابع معين بشكل مطلق، فلا هو خطاب دينيّ، ولا هو خطاب سياسيّ، ولا هو خطاب في الاقتصاد ... بل هو خطاب يأخذ من كلّ مجال بطرف بحسب ما يتطلبه الموضوع وما تمليه الحاجة؛ لذلك حُقّ أن نطلق عليه خطاب المشروع الحضاري [3].

لا أريد هنا أن أضع خطاب النورسيّ في مرتبة القداسة كما لو كان القصور لا يأتيه لا من بين يديه ولا من خلفه، ليس هذا هو المقصود، ذلك أنّ الفكر والمعرفة الإنسانية إذا استقامت على شروطها العلمية، المتعارف عليها، وأسلمت عقالها للقواعد المنطقية في التفكير والنّظر والتأمّل والتحاور، أصبحت في حكم الملكية الجماعية، وموردا للاستفادة ليس لأحد أن يعيبه على أحد؛ فإنّ الاشتراك في المعرفة الإنسانية هو جوهر المشترك الإنساني، وليس هناك أشرف من المعرفة والعلم رباطا بين البشر، والأكرمية للمتقين.

وفيما يلي سنحاول التطرّق -بكثير من الاختصار لجزء يسير من المواضيع التي عالجها الإمام النورسيّ في رسائله ونحن ندرك صعوبة الأمر لقيمة الخطاب موضوع الدراسة:

1- الدّين:

إنّ الدّين عند الإمام بديع الزّمان النورسي -رحمه الله- امتحان وإنّ التكاليف الإلهية تجربة واختبار من أجل تسابق الأرواح العالية والأرواح السافلة، ويتميز بعضها عن بعض في حلبة السباق. وبمعنى آخر هو الشعور بواجباتها من حيث كونها قائمة

نسخة غير قابلة للطباعة

على أوامر إلهية، أو هو محاولة تصوّر ما لا يمكن تصوّره والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه وهو التطلع إلى اللانهائيّ وهو حبّ الله.

لقد أيقن الإمام النورسي -رحمه الله- أهميّة الدّين بالنسبة للأمة الإسلامية في عصر تميّز بالجمود الفكريّ والانحطاط العقدي، والتردي الأخلاقي وقلّة الوازع الديني لدى النّاس. فالإيمان في ظلّ هذا الحال في أزمة وفي خطر. يقول النورسي: "إنّ أعظم خطر على المسلمين في هذا الزّمان هو فساد القلوب وتزعزع الإيمان بصلال قادم من الفلسفة والعلوم" [4].

لذلك بات من الضروري ومن الواجب العمل على بعث الإيمان وإحياءه في نفوس المسلمين. يقول الإمام النورسي -رحمه الله-: "إنّ ألزم شيء في مثل هذا الوقت وأجدى عمل وأجدر وظيفة هو إنقاذ الإيمان"[5].

ويقول: "إنقاذ الإيمان أعظم إحسان في هذا الزّمان". ففي خدمة الإيمان مقدمة لإصلاح الشريعة والحياة؛ لأنه أهم و أولى؛ لأنّ "الإيمان والشريعة والحياة ثلاث مسائل عظيمة في العالم الإسلاميّ والإنساني وأعظم هذه الثلاثة هي الحقائق الإيمانيّة"[6].

هكذا أدرك الإمام النورسيّ -رحمه الله- بثاقب بصره قوة بصيرته أنّ تفعيل الدين وتحقيق الإيمان في هذا العصر هو السبيل الوحيدة لتحقيق المشروع التجديدي الإصلاحي الذي يريده والّذي ينشده كلّ مسلم بل كلّ إنسان، لأجل ذلك تخلى النورسي عن أمور الدنيا والحياة الاجتماعية ونبذ أمور السياسة، وحصر وقته في سبيل إنقاذ الإيمان فقط.[7]

هنا تتجلى قيمة وأهميّة رسائل النور في إنقاذ الإيمان وإعادة الإسلام إلى الحياة فـ "هي تسعى لإصلاح قلب ووجدان معين، بل تسعى أيضا - وبيدها إعجاز القرآن- لمداواة القلب العام، وضماد الأفكار العامة المكلومة بالوسائل المفسدة، التي هيئت لها وزُكّمت منذ ألف عام وتنشط لمداواة الوجدان العام الّذي توجّه نحو الفاسد نتيجة تحطّم الأسس الإسلامية وتياراته وشعائره التي هي المستند العظيم للجميع وبخاصة عوام المؤمنين. ثم إنها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الفائرة بأدوية القرآن والإيمان"[8].

وخلاصة القول: إنّ الخطاب الدّينيّ في فكر الإمام النورسيّ -رحمه الله- يمثّل جوهر المشروع الحضاريّ وصلبه. فكلّ الخطابات الأخرى تدور في فلكه ومنه تستمد شرعيتها.

لقد قدّم الإمام النورسيّ- رحمه الله- من خلال خطابه الديني أنموذجا فريدا في التعاطي مع النّص القرآني؛ إذ سعى دوما إلى بلورة الأدلة القرآنية في قالب عقلي، وأضفى عليها لمسة روحيّة، ونفحه بنفاحات نوريّة، فأقنعت العقل، وأشبعت الرّوح، وأنعشت القلب.

2- السيّاسة:

لقد كان الطّابع العام لحياة بديع الزّمان النورسيّ -رحمه الله- في مرحلة سعيد القديم [9] طابعًا سياسيا إلى حدّ ما؛ إذ كان يحمل فكرة خدمة الدّين عن طريق السياسة؛ فقد دفعه عشقه لخدمة الدّين إلى هذا الطّريق فكان دائم الاهتمام بشؤون الحكم والسياسة، خاض خلالها العديد من المعارك والحروب والثورات. وقد تميّزت هذه المرحلة بمحاوراته الكثيرة والمتعددة مع أصناف من المحاورين من مشارب شتّى وثقافات كثيرة. كما تميّزت بالسّفر المستمر لإحلال السلام في البلاد من خلال إفهام العوام فحوى كثير من القضايا الراهنة منها "المشروطية" [10] وما تعنيه و ما يترتب عليها إذا كانت شرعية في كلّ تفاصيلها.

من حراكه السياسي في هذه المرحلة -كما يذكر في رسائله- تأسيسه "الاتحاد المحمدي" ردا على دعاة القومية الطورانية[11]، والوطنية الضيقة، كجمعية "الاتحاد والترقي" وجمعية "تركيا الفتاة". كما انضمّ إلى "تشكيلات خاصّة" وهي مؤسسة سياسية عسكرية أمنية سريّة، شكّلت بأمر من السلطان محمد رشاد قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى من أجل المحافظة على أراضي الدولة العثمانية، ومحاربة أعدائها. وكان قد انضم إلى هذه المؤسسة كثير من المفكرين والكتاب والعلماء، وكان النورسي -رحمه

نسخة غير قابلة للطباعة

الله- من أنشط أعضاء قسم "الاتحاد الإسلامي" فيها، وأصدر مع عدد من العلماء (فتوى الجهاد) التي تهيب بالمسلمين أن يهبوا للدفاع عن الخلافة.

كلّ هذه المواقف السياسية وغيرها تلخّصها كاتباته عن الساسة والسياسة وعن المشاكل الناجمة عن رداءة العمل السياسي في تلك المرحلة، مع تقديمه دائما البديل في شكل حلول واقتراحات كفيلة بإخراج البلاد من الأزمات التي تتخبط فيها والتي قد تعصف بكيان الدولة.

لقد مارس سعيد القديم السياسة ما يقارب العشر سنوات علّه يخدم الشريعة الإسلامية والعلم عن طريقها ولكن بانتفاء الغاية انتفى السلوك، فلم تعدّ السياسة هي السبيل الأمثل لخدمة الدّين، نظرا لتفشّي الزندقة والبعد التدريجي عن الدّين وعن تعاليم الإسلام السمحة من قبل المسؤولين والنواب والقائمين على شؤون البلاد؛ إذ تيقّن أنّه لا يمكن مجابهة أولئك الأشخاص إلاّ بأنوار إعجاز القرآن وليس بمسالك السياسة. يقول الإمام -رحمه الله-: "لا شكّ أنّ السياسة بمفهومها الشرعيّ يزاولها المسلم بمواقفه من الأحداث اليومية ". بيد أنّ الأستاذ النورسيّ -رحمه الله- خبر السياسة الحاضرة وعرف عدم جدواها بل ضررها بالإخلاص والعمل الإسلاميّ والتي تعرف بالسياسة الميكيافيلية [12]، والتي وصفها بالوحش الكاسر فاستعاذ بالله منها. وفي الوقت نفسه لم يألُ جهدا في نصح الحكام وذوي السلطة؛ إلاّ أنّه لم يتزلف لهم يوما ولم يسر في ركابهم مرة مثلما أنّه لم يواجههم مواجهة مادية بإحداث القلاقل والاضطرابات ورسائل النور زاخرة بمواقفه هذه من الأحداث عبر حياته الطويلة.[13]

كذلك من الأسباب التي جعلت النورسي -رحمه الله- يترك هذا الميدان، أنه رأى أنّ نهج هذا الطريق يتخلله مشاكل عديدة، كما أنّ نتائجها مشكوك فيها، وفي الغالب لا تحقق الغاية المستهدفة، فضلا عن أنّ أغلبها خداع وأكاذيب. كما أنّ احتمال أن يكون السياسيّ آلة بيد العدوّ دون ما يدري أمر وارد. وممارسة السياسة تفرض عليك إما أن تكون في صف النظام أو في صف المعارضة. يقول الإمام: "أمّا الموالاة للنظام فلست مرغما على ذلك...لأنني لست موظفا عند الدولة، وأمّا في صف المعارضة فإمّا أن تكون معارضا بالفكر فلا حاجة لهم في لأنّ الأمور واضحة جليّة لا تحتاج إلى ثرثرة أكبر. وأمّا أن تعارض بالقوة فلا أود أن أحدث مشاكل تفسد أكثر مما تصلح ويروح ضحيتها الأبرياء على أساس أطروحات وفرضيات احتمالات خطأها أكثر من صوابها. لذلك ترك سعيد القديم السياسة ومجالسها الدنيوية وقراءة الجرائد مع تركه السيجارة"[14].

ولعلّ أهم الأسباب التي دفعت سعيد القديم إلى ترك السياسة الرغبة في خدمة الإيمان والنور القرآني والتفرغ للدعوة النورانيّة. يقول: " لذلك تخلّى عن السياسة رغبة في خدمة الإيمان والنور القرآني" [15]. ويقول: "إنّما هي خدمة القرآن تمنعني عن التفكير في الحياة الاجتماعية السياسية"[16].

لذلك شبّه الإمام النورسيّ -رحمه الله- الصنف البشري المتبع لتيار سياسي برجال حيارى يلفهم البؤس والغبن في أيديهم مطارق تمثل التيارات السياسية من جهة ونورا يمثل نور القرآن الكريم من أخرى، ولكي يحافظ أحدهم على النور وجب طرح المطرقة جانبا. لماذا؟ السياسة الحالية ملوثة ومشوشة يستحيل أن تجتمع والنور القرآني لأنها تحجب الرؤيا الصّادقة والحقيقية على الرغم من أنّ الساسة سواء المخالفين أو الموافقين يعشقون هذا النّور. يقول الإمام -رحمه الله-: "... وحمدًا لله فإنّني بسبب تجرّدي عن التيارات السياسية لم أبخس قيمة حقائق القرآن التي هي أثمن من الألماس ولم أجعلها بتفاهة قطع زجاجية بتهمة الدعاية السياسية، بل تزيد قيمة تلك الجواهر القرآنية على مرّ الأيام وتتألّق أكثر أمام أنظار كلّ طائفة"[17].

يقول النورسي -رحمه الله- شارحا وموضحا قوله السابق: "إنّ خدمة القرآن لا تجتمع والسياسة لأنّ الحقائق الإيمانيّة والقرآنية ثمينة غالية كغلاء جواهر الألماس، بل لا يعادلها غلاء، فلو اشتغلت بالسياسية، لخطر بفكر العوام؛ أيريد هذا أن يجعلنا

نسخة غير قابلة للطباعة

منحازين إلى جهة سياسية؟ أليس الّذي يدعو إليه دعاية سياسية لجلب الأتباع؟ بمعنى أنهم ينظرون إلى تلك الجواهر النّفيسة أنها قطع زجاجية تافهة حينها أكون قد ظلمت تلك الحقائق النفيسة، وبخست قيمتها الثمينة، بتخلّي في السياسية"[18].

يقول كذلك -رحمه الله-: "... ثمّ إنّه يفرّ فرارًا شديدًا من السياسة، خدمة للقرآن والإيمان والتي هي أجلّ خدمة وألزمها وأحقّها " لأنّ من في عمر الإمام الأولى عليه العمل للحياة الأخرى؛ وحيث أنه عالم بالشريعة فهو مكلّف شرعا بتوجيه النّاس لإصلاح دينهم ودنياهم.

وعلى الرّغم من أنّ العمل السياسي قد يعود بشيء من النفع والفائدة على مستوى الحياة الاجتماعية، غير أنّ، الجو السياسي السائد لا يحفز ولا يشجع على العطاء؛ لذا لا يمكن القيام بعمل سليم صحيح في زمن عاصف انقلبت فيه كلّ الموازين ولم يبق اعتبار لأي كان.

لكلّ هذا... فإنّ ترك السعي لحياة أبديّة، وترك العمل لنور الإيمان المقدّس والدخول في ألاعيب السياسة الخطرة وغير الضرورية، في زمن الشيخوخة إنما هو خلاف للعقل ومجانبة للحكمة لشخص مفكر لا صلة له مع أحد، يعش منفردا، ومضطر إلى التحرّي عن كفارات لذنوبه السابقة بل يعدّ ذلك جنونا وبلاهة، بل حتى البلهاء يفهمون ذلك.[19]

وعلى الرّغم من أنّ (سعيد) الجديد حاول الابتعاد عن السياسة شعاره في ذلك "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة"، إلاّ أنّه في حقيقة الأمر لم يتخلى عن السياسة فعلا، بل أراد حماية تلاميذه من شر السياسة والساسة، ومع ذلك لم ينجح لا هو لا تلاميذه من الملاحقة والمحاكمات والسجون والمعتقلات والمنافي مما لم يمر في حياة إنسان وهو صابر محتسب يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، مصداقا لقوله تعالى: "أدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"[يوسف، آ]. سبب كل هذه المضايقات وقوف الإمام -رحمه الله- بكل قوة وحزم في وجه التيارات الإلحادية الشاملة التي حاولت طمس كل ما يشير إلى الهوية الإسلامية. ورغم ضراوة الهجمة وشراستها ورغم ما تعرّض له لم يكلّ ولم يملّ -رحمه الله- بل دافع واستمات في دفاعه عن الدين الإسلامي وعن الثقافة الإسلامية حتى وافته المنية -رحمه الله-.

لقد أعطى الإمام النورسي -رحمه الله- درسا بل دروسا للإنسانية في السياسة الشرعيّة موجها العالم للمسلك الصحيح للخروج من الصراعات والنزاعات التي يتخبط فيها، والتي تفتك يوميا بآلاف الأبرياء والضحايا.

إنّ المشروع السياسي في فكر الإمام -رحمه الله- لم يقدّم البديل بقدر ما قدم لنا أصل النظر السياسي وجوهره، مرجعيته القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

لقد أجاب الخطاب السياسي في رسائل النور بدقة متناهية عن سؤال حير القاصي والداني ولا زال وأسال كثير من الحبر بين المختصين في الشأن السياسي الإسلامي والعالمي. كيف لنا أن نواجه الظروف العصيبة والنوازل الطارئة دون أن نتخلى عن ديننا ومبادئنا وأخلاقنا؟ فكان بحقّ مرجعا فريدا في السياسة الشرعية المعاصرة.

3- الأخلاق:

إنّ للأخلاق أهميّة بالغة لما لها من تأثير في حياة الأفراد والجماعات والأمم، ولهذا فقد حفل القرآن الكريم واعتنى بها أيّما عناية، فقد بيّنت سور القرآن الكريم وآياته أسس الأخلاق ومكارمها.[20]

يقول الله جلّ ذكره مادحا نبيّه وحبيبه محمد صلّى الله عليه وسلّم : ﴿وإنّك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم، آ04] ويقول تعالى آمرًا نبيّه بمكارم الأخلاق ومحاسنها: ﴿خذ العفو وأمر بالعفو وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف،آ199] . وعلى نهج القرآن الكريم سارت السنة النبوية، فقد تجاوز عدد الأحاديث التي جاءت في الأخلاق والمعاملات الأربعين ألف حديث وهذا بلا شك دليل على عناية السنة النبوية واهتمامها الواسع بمنظومة الأخلاق حتّى أنها صارت غاية لبعثة رسول الله صلّى الله عليه

نسخة غير قابلة للطباعة

وسلّم "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وكأنّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل للدين من غاية أكبر وأعلى وأرقى من الأخلاق "الدّين المعاملة". يقول الإمام عليّ -رضي الله عنه-: "إنّ الله لما خلق خلقه أراد أن يكونوا على آداب رفيعة وأخلاق شريفة".

ونظرا لهذه الأهمية التي أولاها القرآن الكريم والسنة النبوية لمسألة الأخلاق، فقد شغلت هذه المسألة الفكرية بال المفكرين والعلماء والفلاسفة منذ القديم، فطرحت نفسها على طاولة الحوار والنقاش، وتعددت الأفكار والآراء في شأنها مما أدّى إلى ظهور مدارس أخلاقية عديدة.

ومن المفكرين والعلماء المجددين الّذين قدموا نظرة خاصّة لمنظومة الأخلاق مستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية والواقع الاجتماعي الإمام العلاّمة المجدد الفهّامة بديع الزّمان سعيد النّورسي -رحمه الله-. يقول الإمام -رحمه الله-: "المؤمن يحيا بين كونين كبيرين عظيمين: كون يحيط به من أرجائه بأرضه وسمائه،...وكون أكبر وأعظم وأسمى وأعلى، هو القرآن الكريم،...والسنة النبوية الشريفة هي ملتقى الكونين ومجمع البحرين وبرزخ ما بين العالمين"[21].

الأخلاق عند بديع الزمان النورسيّ -رحمه الله- هي: "نظام القرآن الّذي يطبع صورة الرّوح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة؛ لاكتساب معناها الكوني". فلارتباط هذه المنظومة بمصادر التشريع الإسلامي اتسمت بالعموم والكلية والشمول والعالمية والتوازن، حيث شملت علاقة الإنسان بكلّ شيء؛ بخالقه وبأخيه الإنسان وبكلّ عناصر الكون ومكوّناته. وتتجلى مظاهر الشمول في أنّ الأخلاق الإسلامية كما يراها الإمام -رحمه الله- ليست هي التي تعرف عند بعض النّاس بـ(الأخلاق الدينية) التي تتمثل في أداء الشعائر التعبدية، واجتناب أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، ونحو ذلك لا غير، إنّما أخلاق تسع الحياة بكلّ جوانبها وكافة مجالاتها.

الأخلاق في الإسلام لم تدع جانبا من جوانب الإنسانية؛ روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلاّ رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرّفيع، فما فرّقه النّاس في مجال الأخلاق باسم الدّين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع، قد ضمّه القانون الأخلاقيّ الإسلاميّ في تناسق وتكامل وزاد عليه.

ومن أثار كذلك ارتباط الخطاب الأخلاقي لدى النورسي -رحمه الله- بالقرآن الكريم والسنة النبوية أنّ الذي طرحها وبسط شرحها أخلاقا شرعية ذات مصادر ربانية سامية ونبيلة.

ومادام القرآن الكريم والسنة النبوية تشريع صالح لكل زمان ولكل مكان كان لابد أن ترتبط هذه المنظومة الأخلاقية بالواقع الاجتماعي، فانتفت عنها صفة التجريد والميتافيزيقية البحتة، فلا هي غيبية بإطلاق ولا هي ماديّة واقعية بإطلاق؛ إنّها غيبية واقعيّة، ومثالية مادية.[22]

إنّ من يطالع رسائل النور يجد أنّ بديع الزمان النورسيّ -رحمه الله- يحاول أن يجعل منها مصدرا للأخلاق والتقوى والورع؛ فهو يذكّر دائما أنّها دالة على الخير وموجّهة للفضيلة، ومساعدة على التدرّج في سلّم المكارم، وهذا كلّه يقوّي الإيمان ويزيد فيه،[23] انطلاقا من الربط بين مفهوم الأخلاق ومفهوم الإيمان، وما ينبثق عنه من نظام في العبادة، يكمن في التصوّر الخلقي الصحيح، ففي الإيمان وطرائقه وآفاقه تستطيع النفس الإنسانية أن تجد حاجتها الماديّة والروحيّة معا، وليس ثمة طريق يبلغ بالإنسان إلى كماله المنشود وصلاحه المرجو، وبالتالي سعادته المأمولة، غير طريق الإيمان.

يرى الإمام النورسيّ -رحمه الله- أنّ "الأخلاق عزّة لأنّ من أراد العبوديّة الخالصة لربّ العالمين لا ينبغي له أن يذلّ نفسه فيكون عبدًا للعبيد، حيث إنّ كلّ إنسان راع في ملكه وعالمه فهو مأمور بالتخلّق بأخلاق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وإحياء

نسخة غير قابلة للطباعة

سنته الشريفة"[24]، كما أنّ "الإفراط والتفريط في الأخلاق يفسدان الاستعدادات والمواهب، وهذا الإفساد ينتج العبثية، وهذه العبثية مناقضة للحكمة الإلهية المهيمنة برعاية المصالح والحكم حتى على أصغر شيء في العالم"[25].

وتبرز قيمة الأخلاق في أنّ حضارات الأمم تبنى بالأخلاق والقيم[26]، وأنّ انهيارها مرتبط بالانحلال والانحراف عن منهج الله الواحد الأحد. وهو ما كان مع كثير من الحضارات؛ إذ لم تكن واقعية، وإنّما شكل من أشكال العمران، ولكن عن خواء قيميّ؛ إذ لا تمكث كثيرا حتى تجد نفسها وتاريخها وعمرانها قد أصبح من خوالي الدّهر.

وأعظم مثال على ذلك الحضارة الإسلاميّة التي امتدت على مدار قرون من الزّمن شامخة عليّة لاعتبار واحد هو التزامها بالقانون الشرعيّ الإسلاميّ من حيث عمقه الخلقي الرّفيع . يقول الإمام النورسيّ -رحمه الله-: "أمّا المدنيّة التي بنيت على أساس التشريع الإسلاميّ والأخلاق المحمدية الرّفيعة، فإنّها مبنية على الحقّ والفضيلة والرابطة الدينية والتعاون والهدي، وهذا ما يؤدّي إلى العدالة والتوازن والمودّة والأخوة والمسالمة والاتحاد وترقّي الإنسان"[27].

وما إن تخلّى المسلمون في الأندلس -كخير مثال عن هذا الاعتبار الفاصل حتّى أدّى إلى سقوط الإسلام وضياع الأندلس إلى أن يشاء الله عودته إلى حضيرة الإسلام. صدق الله العظيم القائل: ﴿وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرًا﴾.[الإسراء، آ16]. يقول ابن خلدون: "إذا تأذّن الله بانقراض الملك عن أمّة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرّذائل وسلوك طريقها، وهذا ما حدث في الأندلس وأدّى فيما أدّى إلى ضياعه"[28].

وقد نبّه الإمام النورسيّ -رحمه الله- إلى أنّ أهمّ أسباب انهيار الأخلاق في العالم في جميع الأزمنة وفي هذا الزمان على -وجه الخصوص- ترجع إلى تفشّي الفقر وغلبة الجهل وكثرة الخلاف والإغراق في حبّ الذّات على حساب الآخر. يقول الإمام -رحمه الله-: "إنّ أعداءنا ليسوا هم الأجانب بل إنّ عدوّنا هو الجهل وما تولّد منه من منع إعلاء كلمة الله، وما نتج عنه من مخالفة الشريعة، ثمّ البؤس وثمرته سوء الأخلاق وسوء التصرفات، والخلاف وما يتولّد عنه من الحقد والنفاق"[29].

يقول أيضا -رحمه الله-: "أنّ معدن جميع الاضطرابات والقلاقل والفساد وأصلها، ومحرّك جميع أنواع السيئات والأخلاق الدنيئة ومنبعها ... جملتان فقط ... الأولى: إذا شبعت أنا فمالي إن مات غيري من الجوع. والثانيّة: تحمّل أنت المشاقّ لأجل راحتي، اعمل أنت لآكل أنا، لك المشقة، وعليّ الأكل"[30].

كذلك من أسباب سقوط العالم في مستنقع السيئات والذّنوب والمعاصي؛ الإعلام الفاسد الذي يسعى دوما وبكل ما يملكه من سلطة وقوّة ونفوذ إلى نشر الرذيلة والأخلاق الفاسدة في كلّ مكان. يقول الإمام -رحمه الله-: "لقد دأبت الصّحف على زعزعة الأخلاق الإسلامية، حتّى أهلكوا الأفكار العامة السائدة، فتصديت لهم بمقالات نشرتها في الجرائد"[31].

ولا يمكن إغفال هنا دور المدارس الفلسفية في هذا الانحدار الأخلاقي وما يشهده العالم من انهيار في القيم والأخلاق، فقد غدت وسيلة للتردّي في الضلالة والكفر والإلحاد.

لم يكتف الإمام النورسي -رحمه الله- بتشخيص الدّاء، بل سعى -كما جرت العادة في خطابه بشكل عام- إلى توصيف العلاج المناسب للقضاء على هذه الآفات، وتوجيه العالم إلى السبيل القويم والمخرج السليم من هذه الظلمات. يقول: "ما ينبغي أن ننخدع، بل نجعل القاعدة الآتية دستور عمل لنا وهي: خذ ما صفا دع ما كدر، وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب -مشكورين- كلّ ما يعني الرقيّ المدني من علوم وصناعات، أمّا العادات والأخلاق السيئة، فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبين قبحها كثيرا لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة"[32].

نسخة غير قابلة للطباعة

في الختام يمكن القول: إنّ الأخلاق في الإسلام - كما قرر ذلك الإمام النورسي في رسائله - لها مكانتها وأهميتها، والحقيقة التي تتجلّى لمن يتدبّر آيات القرآن الكريم ويتأمّل نصوصها وروحها، هي أنّ الإسلام في جوهره رسالة أخلاقية بكلّ ما تحمله الكلمة من عمق وشمول؛ لأنّ الأخلاق تسري في كيان الإسلام كلّه وفي تعاليمه كلّها.

4- التربيّة:

ميدان التربيّة و التعليم من أهمّ الميادين، أثره كبير في تنشئة الأجيال، الذين هم قاعدة بناء المجتمعات والدول، ولما كان التغيير في المجتمعات والأمم يسير حسب سنة لا تتبدّل ولا تتغير ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد، آ11].

فإنّ ميدان التغيير التربية والتعليم، وجيل المتعلمين اليوم هم قادة مجتمع الجيل القادم.

ولقد سارت التربية والتعليم في الواقع التاريخي للأمة الإسلامية فكانت وسيلة هداية، وطريقة خير للفرد والمجتمع والناس أجمعين، فقد كان الرّسول عليه أفضل صلاة وأزكى سلام هو المعلم الأوّل للأمّة الإسلاميّة: ﴿هو الّذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[الجمعة، آ02].

التربيّة في الإسلام تؤسّس على قيم الأمّة ومبادئها، وبهذا نعلم أنّه لا يمكن لأمّة أن تستعير مناهجها التعليمية من أمّة أخرى أو تبقي منهجها على مواصفات أمّة أخرى.

ونظرا لقيمة التربية والتعليم في حياة الفرد المسلم، ونظرا إلى أنّ أيّ حضارة وأمّة لا تقوم مؤسستها التعليمية على التربية الرشيدة واقعا عمليا لا يمكن أن تسير طويلا مهما ارتقت وتفننت في الوسائل. كان اهتمام الإمام النورسي -رحمه الله- بهذا المجال بقدر ما يستحقّه وأكثر.

لقد عاش النورسيّ في عصر سيطر فيه الجهل وعمت الفوضى والخواء الروحي وفرغ الإنسان المسلم من محتواه أو كاد بعد أن بسطت العلمانية نفوذها وسيطرتها على المرافق والمؤسسات العامة وصبغت البلاد بصبغة قطعت أو حاولت أن تقطع كلّ صلة بينها وبين الإسلام.(33)

ولم يكن وسط هذا الظلام من ضوء يذكر غير ضوء القلب المؤمن المتحدّي بإيمانه ريّاح الهوى التي هبّت على الحياة فعكرت صفوها ونشرت فيها جراثيم الجهل. ولم يكن هنالك من شعاع غير مواقف الرجل العظيم بصلابة إيمانه وقوة يقينه تردّ التّائهين الحائرين وتبعث في النّفوس أمل الخلاص في يوم يراه الظّالمون بعيدا ويراه المؤمنون قريبا.

هنا حضر النورسيّ برسائله وكأنّه نسيم يحمل بشائر الشّفاء لأمّة طال مرضها وطال ليلها، فكانت مواقفه وكلماته بمثابة إكسير الحياة للهمم التي أصابها اليأس وحطّمها القنوط.

لقد استطاع أن يؤثّر تأثيرا إيجابيا في حياة المعلمين والمربين والموجهين والمرشدين بسبب تمكّنه من نفوسهم نظرا لما قدّمه من مواقف تاريخية في وجه كل ما يشير للحضارة الماديّة التي قتلت الحياء ووأدت الفضيلة ولوثت العقول بالأفكار المنحرفة. بذلك صار الإمام -رحمه الله- معلما ومرشدا وموجّها لهؤلاء. يقول: "على الوعاظ والمرشدين المحترمين أن يكونوا محققين كي يتمكنوا من الإثبات والإقناع، وأن يكونوا حكماء مدققين كي لا يفسدوا توازن الشريعة، وأن يكونوا بلغاء مقنعين كي يوافق كلامهم حجات العصر، وعليهم أن يزنوا الأمور بميزان الشريعة"(34).

إنّ المتأمّل في هذا النّص يلاحظ أننا أمام اتجاه تربويّ أصيل مصبوغ بصبغة تهذيبية، مشغول بمعالجة الجوانب الحسيّة والفكرية لدى الإنسان، مرتبط بالتأسيس لبرنامج تعليمي يرقي النّفس الإنسانية حتّى تستخدم بشكل صحيح يحقق اندماجا حقيقيا للتشكيل الاجتماعي.(35)

نسخة غير قابلة للطباعة

وعليه يخطئ كثيرا من يحصر التعليم في تكثيف المناهج وحشو المعلومات، مع أهميّة ذلك؛ إلاّ أنّ تقدّم الأمم يقاس بقدر التزامها بالقيم وتشبعها بالمبادئ وتمثّلها الأخلاق. فالمناهج والنّصوص مهما كانت سامية لا يكون لها تأثير فعّال إلاّ إذا تحوّلت إلى واقع متحرّك وترجمة عمليّة في التصرّفات والسّلوك والمشاعر والأفكار. فحاجتنا إلى القلوب العامرة بالإيمان ليست دون حاجتنا إلى الرؤوس المشحونة بالمعلومات. في هذا الصدد يقول: "إنّ الإيمان إكسير يقلب فحم المادة الفانية ألماسا مصنّعا مرصّعا باقيا بمعناه نسبة إلى الصّانع الباقي ... والإنسان بالكفر يعكس فينتكس"[36].

ويقول أيضا: "فالإيمان نسبة يُنسِبُ الإنسان إلى مالكه، وجهةُ النسبة إنّما تنظر إلى الصنعة، فيكون مدار النّظر حينئذ إلى المصنوعية والصنعة. فبالإيمان تزيد قيمة الإنسان إلى أن تصير الجنّة ثمنه، وتكون الخلافة رتبته، ويطيق على حمل الأمانة (...) وأمّا الكفر فهو قاطع النسبة وقاطع الوصلة (...) فإذا انقطعت النسبة استتر الصنع، وانتكست الصنعة، واختفى التجلّي، وظهرت المادة، وانقلبت المرآة، وسقطت القيمة إلى دركة يتمنّى الكافر العدمَ، أو ينقلب ترابًا"[37].

إنّ الفكر التربويّ عند الإمام النورسيّ -رحمه الله- يهدف إلى تنميّة الأفعال الاختيارية بحيث تعبّر عن شخصيّة الإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا غير منعزل شريطة توافقها وتماشيها مع المقاصد التربوية الشرعيّة التي تنحدر من الشريعة الإسلاميّة. يقول مخاطبا النّفس: "ولا تظنّني نفسك سارحة مفلت الزمام ذلك لأنّك إذا ما نظرت إلى دار ضيافة الدنيا هذه، نظر الحكمة والروية (...) فلن تجدي شيئا بلا نظام ولا غاية، فكيف إذا تبقين أنت وحدك بلا نظام ولا غاية، فحتى الحوادث الكونيّة، والوقائع الشبيهة بالزلازل ليست هي ألعوبة بيد الصدفة"[38].

ويقول أيضا "أيّها المسلم إنّ لك في تطبيق عملك العرفي ومعاملتك العادية على الأصول الشرعية خزينة أخروية وإكسيرًا كبيرًا، يصير به كلّ عمرك عملا، وكلّ عاداتك المباحة عبادة، وغفلتك بمشاغلك حضورًا (...) طوبى لمن نوّر حركاته بالآداب الشرعيّة (...) وياخسارة من خذله الله باتباع الهوى فاتخذ إلهه هواه حتّى صار عمره هواءً وعمله هباءً"[39].

إنّ كتابات بديع الزّمان النورسيّ -رحمه الله- ارتبطت بشكل وثيق بدستور الحياة الأوّل القرآن الكريم لأنه أساس التربية، فهو النبع الّذي لا ينضب والسعادة التي لا حدّ لها والعزّ المشيد والرقي الحميد، لم ترفع الأمّة رأسًا إلاّ بالقرآن، ولم تنل العزّة والمنعة إلاّ بتطبيق أحكامه. فيه شفاءً لكلّ النّاس. يقول الإمام -رحمه الله-: "إنّه كما أنّ لكلّ واحد من العالم عالما يخصّه كذلك لكلٍّ باعتبار مشربه قرآن يخصُّه ويربيه ويُداويه"[40].

وخلاصة القول:إنّ بديع الزمان النورسي -رحمه الله- قدّم لنا منهجا تربويا سنده ومصدره القرآن الكريم؛ منهج يربّي الفرد وينمّي شخصيته ويجعله يطلب العلم ويسعى للنبوغ والريادة، للبناء لا للهدم، للخير لا للشر؛ منهج لا سبيل للأمة الإسلاميّة إلاّ اتباعه فالواقع يقتضي من الجميع العمل على تغذية المناعة وتحصين الأجيال حذرًا من أخطار تحذقة بالعقيدة والفكر والسلوك، وهذا يتطلّب تقييم مسارنا التربوي لصناعة الشخصية المسلمة.

الختام:

كان بديع الزّمان سعيد النورسي -رحمه الله تعالى- أمّة في رجل؛ باعث أمّة، مجدد قرن، معلمة نابضة بهموم الإيمان والأخلاق والعلم والتربية والسياسة الشرعية والثقافة القرآنية. لم يهتم بوضع فلسفة ولا كان يهدف إلى أن يكون منظرا على المستوى الفكري أو الفلسفي أو السياسي، وإنّما كان مشروعه أضخم وأعظم من أن يحلّق في فلسفات عائمة في الفضاء.

وحيث إنّ مشروع النورسيّ؛ مشروع إسلامي بل إنساني؛ لذلك كانت رسائله إسهامات بارزة وفارقة في المنتج الإسلامي المعاصر، وفي تحريك الحس الحضاري، وإيقاظ الشعور الجمعي للأمّة.

نسخة غير قابلة للطباعة

تحمل هذه الرسائل التي هي من نور القرآن العظيم الأدوية الناجعة للجروح والأمراض الإنسانية الأبدية، التي تفتك بالإنسان؛ إذ أنّها "تفسّر وتكشف طلسم الكائنات العظيم"[41].

" إنّ هذه البلاد وهذه الأمّة والحكومة ستكون في أقرب وقت بحاجة إلى مؤلفات من أمثال: (رسائل النور)، حاجة ماسّة تجاه العالم الإسلامي، وتجاه الدنيا بأسرها. وستبيّن وجودها وكرامتها ومفاخرها التاريخية، بإبراز هذه المؤلفات".[42]

الإحالات :

1- أورد المفكّر السوري أميان مرسلان الأنطاكي منذ القرن الثالث للميلاد ونقلها عنه بيير شوفان في كتابه (أواخر الوثنيين) " أنّ امتلاك صفة (الموسوعي) لدى العلماء كانت تتطلّب امتلاك ناصية سبعة متكاملة هي: اللّغة، علم الهندسة، الموسيقى، والهرموني، علم الفلك، علم الحساب، الجبر، ثم الطبّ".

2- محمد عمارة، الموسوعية والموسوعات في الحضارة الإسلامية، مجلة حواء، العدد العشرون، (يوليو- سبتمبر) 2010، ص17.

3- إنّ المشروع الحضاري ما لم يتهيّأ له شروط التلقّي بالقبول فإنّه يظلّ حبرًا على ورق، وربّما مدعاة للفراق بدل الوفاق، ولقد تعلمنا من ديننا أنّ المصالح المرسلة ليست مرسلة بإطلاق، وأنّ المصلحة والمفسدة عندما تتعارضان يقدّم درء المفسدة، وأنّ الدّليل الأضعف قد يقدّم في العمل عن الدليل الأقوى في النّظر.

4- بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، اللمعات، ت: إحسان قاسم الصّالحي، شركة سوزلر للنشر، ط3، 2000م، ص158.

5- بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، ملحق قسطموني، ت: إحسان قاسم الصّالحي، ص194.

6- المصدر نفسه، ص136.

7 - بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، سيرة ذاتية، ت: إحسان قاسم الصّالحي، ص314.

8- النورسي، مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان، ت: إحسان قاسم الصّالحي، مطبعة منير، بغداد 1991، ط1، ص72، 73.

9- مصطلح (سعيد القديم) لقب يطلقه النورسي على مرحلة الأربعينات الأولى من عمره، أي مرحلة ما قبل الشروع في كتابة رسائل النور، و هي مرحلة الاهتمام السياسي في حياته . و أمّا لقب (سعيد الجديد) فهو شخصية النورسي الجديدة، التي ودّعت العمل السياسي الجزئي و اشتغلت بالعمل الروحي الكلي .

انظر: فريد الأنصاري، بديع الزمان النورسي- من برزخ التصوف إلى معراج القرآن، حلقة دراسية حول: الإدراك الروحي بين التصوف و النورسي، تنظيم: مؤسسة اسطنبول للثقافة و العلوم، 26،27 يوليو/ تموز2005، دار سوز للطباعة و النشر، ط1، 2006م، ص.41

10- المشروطيّة: هي إعلان النظام البرلماني في الدولة العثمانية، وبموجبه أصبحت الوزارة مسؤولة أمام البرلمان وليس أمام السلطان، كما أنّ صلاحيّة تشريع القوانين أصبحت من اختصاص البرلمان. وقد أعلن السلطان عبد الحميد الثاني مرتين؛ مرة عند بداية حكمه وهي المشروطية الأولى في 19 آذار 1877م، وفي 23 تموز سنة 1908م أعاد المشروطية والدستور مرة أخرى فيما سمي بت (المشروطية الثانية).

انظر: علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني (1638-1750)، الموصل، 1985، ص21، 25.

11- الطائفة الطورانية هي القومية التركية الطورانية، نشأت في المحافل الماسونية اليهودية التي يشرف عليها اليهود الأسبان، والبولنديون، الإيطاليون. إن الرواد الأوائل لم يكونوا مسلمين أصلا ولا من الجنس الذي يدعون إلى قوميته. فمثلا (بورزيكي) الذي سمى نفسه مصطفى جلال الدين – بولندي الأصل – عمل على نقل القومية البولندية وصبها في قالب تركي، ومنذ تأسيس جمعية الإتحاد والترقي. لم يظهر بين زعمائها وقادتها واحد من أصل تركي صاف، فأنور باشا بولندي مرتد، وجاويد من الطائفة اليهودية (دونمة)، وكراسو (من اليهود الأسبان) في سالونيك، وطلعت باشا من أصل غجري، وأما أحمد رضا فنصفه شركسي ونصفه مجري ومتأثر بالفيلسوف(كونت)! انظر: ejabat.google.com

12- السياسة الميكيافيلية: مفهوم (الميكافيلية):نسبة إلى « نيقولا ميكافيلي » وهو إيطالي، تطلق عادة في حقّ الناس والساسة الذين يعمدون إلى تحقيق مآربهم بالدهاء والمكر، والقوة حيث افتتح ميكافيلي عصره بالقول (إن جميع الأنبياء المزودين بالسلاح ينجحون والأنبياء العزل يخفقون) ونتساءل ماذا كان يدور في عقل هذا الرجل صاحب المفهوم الشهير (الغاية تبرر الوسيلة) وهو يسجل بغرابة هذه المفاهيم في سفره كان وما يزال غاية تاريخية في محفل القيادة والسلطة والحكم؟ وما هي الأزمنة والأوقات التي أتاحت له المجال لمثل هذه الأمثلة؟

نسخة غير قابلة للطباعة

فقد كانت إيطاليا مولده ونشأته التي كان يتسم زمانها بالفرقة والتشرذم في الدويلات الصغيرة يسودها الخصام وحكامها المتصدين دائما للحكم والسلطان. وكان (ميكافيلي) وهو يرقب المتغيرات، تحسدت له بأنّ الفضيلة والنوايا الطيبة ليست كافية للبقاء والحياة؛ لذا نزعته للحكم ومفاهيمه مجردة من العاطفة وقاسية مؤلمة في صراحتها.

والفكرة المكيافيلية أن لا يكون من المستغرب أن يحرق المكيافيلي مجموعة من أوراق النقد ذات الأرقام العالية، والقيمة الكبيرة، ليغلي عليها ما يصلح فيه كأسًا من الشاي، أو فنجانًا من القهوة، فغايته التي هي شرب الشاي أو القهوة، تبرر له وسيلة إحراق الأوراق النقدية الكبيرة، وخسارة الألوف، مقابل شراب لا يساوي بضعة فلوس.

ويلزم من هذا المذهب أن لا يرى الميكافيليون مانعًا من إلقاء مخطوطات علمية عظيمة نادرة، في نهر كبير، لتكون بمثابة جسر مؤقت تعبرُ عليه جيوش الغزاة وليس من المهم بعد ذلك أن تخسر الإنسانية ذخائر المنجزات العلمية والفكرية الحضارية، التي خلفتها القرون الأولى، فالغاية تبرر الوسيلة وأن لا يروا مانعًا من تجويع الألوف من البشر، وسرقة خيراتهم، ليستمتع مجرم واحد بمظاهر الترف والرفاهية، فالغاية تبرر الوسيلة، وأن لا يروا مانعًا من أن يقطع إنسان يد آخر، ليجعل من عظم ساعدها عصبًا لمكنسته وأن يسلخ جلد إنسان حي ليصنع منه طبلاً أو دفًا، يتسلى بالنقر عليه في جلسات السمر وأن يحرق مدينة كاملة ليتمتع بمشاهدة لهيب نار عظمى عن بعد، ثم يدين بها براء ويعاقبهم بهذه الجريمة النكراء، كما فعل (نيرون) إمبراطور روما وأن يقذف إلى حلبة المصارعة وحشًا ضاريًا جائعًا، وإنسانًا بريئًا ليتمتع بمشاهدة ظفر الغالب منهما ومصرع المغلوب، وقد مارست روما في أوج سلطان إمبراطوريتها من ذلك الشيء الكثير.

كل هذا ونظائره ينبغي أن يكون مقبولاً لدى (المكيافيليين) لأن الغاية تبرر الوسيلة.

انظر: www.anageed.com موقع الكتروني.

13 - النورسي، سيرة ذاتية، ص202.

14- م ن، ص ن.

15- النورسي، سيرة ذاتية، ص205.

16- م ن، ص 203.

17- م ن، ص205.

18 - م ن، ص200.

19- م ن، ص 205.

20- عبد الله بن سيف الأزدي، فصول من الأخلاق الإسلامية، ط1، دار الأندلس، 2000م، ص73.

21- النورسي، السنة النبوية، ص96.

22- محمد خروبات، تكامل الأخلاق عند بديع الزمان سعيد النورسي، المؤتمر العالمي السابع لبديع الزمان النورسي؛ ممارسة حياة إيمانية فاعلة في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات من خلال رسائل النور،2004/10/5.4.3 اسطنبول- تركيا، شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2004م، ص127.

23- المرجع نفسه، ص123.

24- النورسي، سيرة ذاتية، ص102.

25- النورسي، صيقل الإسلام، محاكمات، ص140.

26- يقول محمد الشيرازي: "إنّ جوهر الحضارات الأخلاق، فإن كانت الأخلاق خيّرة، كانت الحضارة خيّرة والتفّ النّاس حولها، وإن كانت الأخلاق سيّئة كانت الحضارة سيّئة وانفضّ النّاس عنها، وليس الأمر بالادّعاء وإنّما بالواقع، فالحبّة الواقعيّة هي التي تنبت، والفسيلة الواقعية هي التي تؤرق وتزهر وتثمر، والبيضة الواقعية هي التي تفقس عن جنين، أمّا إذا كانت تلك صوريّة وخياليّة فإنّ نصيبها الفشل والفضيحة".

انظر: الشيرازي، محمد الحسيني، طريق النجاة، دار الصادق، بيروت، ط1، 1998، ص431.

27- النورسي، الكلمات، ص325.

28- ابن خلدون، المقدمة، ص237.

29- النورسي، سيرة ذاتية، ص140.

نسخة غير قابلة للطباعة

30- النورسي، لوامع، ص28.

31- النورسي، سيرة ذاتية، ص100.

32 - م ن، ص86.

33 - النورسي، الشعاعات، ص294.

34- عبد الله الطنطاوي، الإصلاح والتفسير عند بديع الزمان النورسي، دار القلم، دمشق، سوريا، ص63.

35 - عز الدين جوليد، الفكر التربوي ومقاصده في الحياة عند بديع الزمان سعيد النورسي، ندوة دولية؛ فقه المقاصد والحكم في فكر بديع الزمان النورسي، أكادير (المملكة المغربية) 13-14 مارس 2008م، دار سوز للطباعة والنشر، ط1، 2009م، اسطنبول، 428.

36- النورسي، المثنوي العربي النوري، ص441.

37- م ن، ص ن.

38- النورسي، كلمات صغيرة، ص98.

39- النورسي، المثنوي العربي النوري، ص481.

40- م ن، ص249.

41- النورسي، سيرة ذاتية، ص253.

42- النورسي، الملاحق في فقه دعوة النور، ص269، 270.

نسخة غير قابلة للطباعة